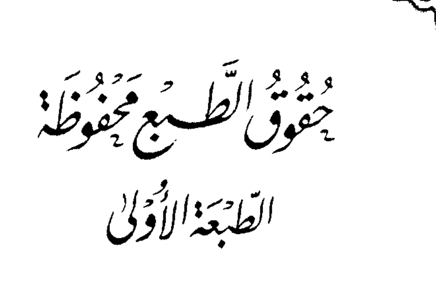


فضيلة الشيخ
عادل السيد -حفظه الله-







دار الاستقامة للنشر والتوزيع

العنوان/ ٨١ شارع الهدى المحمدى - مساكن عين شمس

القاهرة - جمهورية مصر العربية

محمول ٠٠٢٠١٨٥١٨٣٤٤٢ - ٠٠٢٠١٢٧٤٨٣٢٦٣

email: zahran_٧٥ @yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تصدير

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام علىٰ رسول ﷺ.

أما بعد:

فهذه الرسالة أصلها خطبة جمعة، ألقاها فضيلة الشيخ عادل السيد – حفظه الله – في المركز العام لجماعة أنصار السنة المحمدية .

ونظرا لأهمية موضوعها فقد رأت لجنة الدعوة بفرع عابدين العمل علىٰ نشرها مكتوبة ليعم بها النفع، وذلك بعد أن أعاد فضيلة الشيخ النظر فيها لتصلح للنشر .

والله نسأل أن يعم النفع بها مكتوبة كما نفع بها – سبحانه – مسموعة، وأن يغفر لكاتبها و ناشرها وقارئها وكل من أسهم فى نشرها، إنه ولىٰ ذلك و القادر عليه .

لجنة الدعوة - فرع عابدين

تفسير سورة الإخلاص

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي مُحَمَّد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فِي النار.

أما بعدُ:

فيا أيها الإخوة الكرام، نتحدث اليوم عن أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العليا، ونود أن نشير في بداية حديثنا إلىٰ أمر مهم ينبغي للمسلمين أن يعرفوه، هذا الأمرُ المهم هو أن أعظم كتاب تحدَّث عن أسماء الله الحسنىٰ، وصفاته العليا، وأفعاله الكريمة، وأمره ونهيه، وتشريعه وأيامه، وتكريمه لأوليائه، وانتقامه من أعدائه -هو القرآن الكريم، هو كلام الله المهيمن علىٰ الكتب السابقة، المُنزَّل علىٰ عبده ورسوله محمد ﷺ.

تسمية السورة:

ولما كان اعتقادنا مستمدًّا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فإنني أختار في هذه الساعة المباركة من يوم الجمعة- سورة من سور القرآن الكريم، أَخْلَصَتْ الحديث عن الله ﷻ، وأَخْلَصَتْ الحديث عن أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العليا، ولما أخلصت

الحديث عن كل ذلك، وتحلَّىٰ قارئها وحافظها والمعتقد لما فيها -بالإخلاص لله ﷻ، وتخلَّص من الشرك بجميع أنواعه، وأذعن لها، وآمن بها، واعتقد ما فيها، وسلَّم لها-سمَّاها الله لذلك: «سورة الإخلاص»، مع أن لفظ الإخلاص لم يُذكر فيها صريحًا، ولذلك وجدناها قد خَلَت من الأحكام والقَصص وغير ذلك من الأغراض التي تشتمل عليها سور القرآن الكريم، فليس فيها من الأغراض والمقاصد سوىٰ الحديث عن الله تعالىٰ وأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا.

فضائل السورة:

ولا نستطيع في هذه العجالة أن نحيط بفضائل السورة، ويكفي أنَّ الرسول ﷺ وصفها بأنها تَعْدِلُ ثُلثَ القرآن الكريم.

سورة تكتب في سطر واحد، ومع ذلك فقد حَوتْ علومًا جمة، استحقت أن تعدل ثلث القرآن.

*** بعض الأحاديث التي ذكرت فضلها:**

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أيعجز أحدُكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟**» فشق

ذلك عليهم، وقالوا: أينا يُطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**الله الواحد الصمد ثلث القرآن**»[1].

وعن أبي سعيد قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**والذي نفسي بيده لَتعدل نصف القرآن، أو ثُلثه**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: احشِدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد مَن حشد، ثم خرج رسول الله ﷺ، فقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله ﷺ: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، إني لأرئ هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: «**إني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٥)، باب فضل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده»، وهو من طريق ابن لهيعة، ويشهد له ما قبله وما بعده من الأحاديث، والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم (باب فضل قراءة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾)، والترمذي (٢٩٠٠).

ويبين لنا أهل العلم بمعاني كتاب الله تعالىٰ: أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن في الجزاء، وليس في الإجزاء، بمعنىٰ: أنها لا تُجزئ عن قراءة القرآن الكريم جميعه، ولكن من قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن الكريم كله في الثواب، فمثلًا: قال رسول الله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قديرٌ عشر مرات، فكأنما أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل**»[1].

فهل مَنْ وجبت عليه كفارةُ ظهار، أو كفارة يمين، أو كفارةُ قتل خطأ، يُجزئُ عنه أن يقول هذا الذكر الطيب المبارك؟!

الجواب: لا..لماذا؟

يقول العلماء: لإن هذا الذِّكر -وهو قولنا: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له...**»**إلخ**، يعدل عتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل في الجزاء، وليس في الإجزاء، ولذلك: لو قرأ الإنسان سورة الإخلاص في صلاته ثلاث مرات، لا تُجزئ عن قراءة الفاتحة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

والسؤال الذي يُراود المستمعين الآن هو: ما هو توجيه قول الرسول ﷺ: «**تعدلُ ثلث القرآن**»؟

الجواب: مع إيماننا الكامل بجميع ما يقوله الرسول ﷺ، وإن غاب عنا وجهُ الحكمة، فإننا نعتقد أن لجميع أقواله حِكَمًا عظيمة -عَلِمهَا مَنْ علمها، وجهلها مَنْ جهلها- ومع ذلك يقول العلماء في توجيه كلام النبي ﷺ الآتي:

يشتمل القرآن الكريم على:

١- الخبر عن الله بأسمائه وصفاته، وهذا ما تضمنته سورة الإخلاص.

٢- الخبر عن المخلوقات؛ كالإخبار عن الأمم السابقة، والإخبار عن الحوادث الحاضرة، وعن الحوادث المستقبلة -بما فيها ما يحدث يوم القيامة- وأخبار الجنة وأهلها، والنار وأهلها، أعاذنا الله وإياكم منها.

٣- الأحكام الشرعية، مثل: «أقيموا، آتوا، أَوْفُوا، لا تشركوا، لا تجسسوا...»[1].

---

(١) أي: افعل ولا تفعل.

فسورة الإخلاص أخلصها الله تعالىٰ للحديث عن أسمائه وصفاته، وهذا ثُلثُ موضوعات القرآن الكريم، ولذلك سنجد فيها حديثًا عن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، فهي تتضمن إثبات كل كمال لله تعالىٰ، ونفي كل نقصٍ عنه ﷻ، وكذلك تنفي عن الله الشبيه والمثيل والمكافئ، وكذلك تنفي عن الله مطلق الشريك.

وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي، الذي يجعل صاحبه مفارقًا ومخالفًا لجميع فرق الضلال والشرك، ولذلك كان الرسول ﷺ يقرأ بها مع سورة (الكافرون) في سُنَّة الفجر، وفي سُنَّة المغرب، وفي ركعتي الطواف، وكذلك في الوتر، لأنها مبنية علىٰ الإخلاص التام لله تعالىٰ.

ولا تحسبن ما ذكرته لك هو كل ما ورد في فضلها، بل وردت أحاديثُ عدة في فضلها، وفضل قراءتها في الصلاة وخارجها، وفي أدبار الصلوات، وفي الصباح والمساء، وعند النوم، وعند القيام من النوم، وللاستشفاء بها، وسأذكر لك

بعض ما ورد في فضل قراءتها، وفضل حُبِّها، وحب قراءتها:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلًا علىٰ سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ؛ فقال: «**سَلُوه لأيِّ شيء يصنع ذلك؟**».

فسألوه، فقال: لإنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أخبروه أن الله تعالىٰ يُحِبُّه**»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من الأنصار يَؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يَقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به، افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ حتىٰ يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرىٰ معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلَّمه أصحابه، فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترىٰ أنها تُجزئك حتىٰ تقرأ بالأخرىٰ، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تَدَعها وتقرأ بأخرىٰ!

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٤٠)، ومسلم (١٩٢٦).

فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره.

فلما أتاهم النبي ﷺ، أخبروه الخبر، فقال: «**يا فلان؛ ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك علىٰ لزوم هذه السورة في كل ركعة؟**».

قال: إني أحبها، قال: «**حبُّك إيَّاها أدخلك الجنة**»[1].

وواضح من هذا الحديث وغيره: أنَّ الذي يُحب هذه السورة يُدخله الله الجنة، كما قال النبي ﷺ، وكذلك من يُحبها يُحبه الرحمن، فهذا باب من أبواب دخول الجنة، وبابٌ من أبواب محبة الرحمن لك، فاحرصْ عليه ولا تفرِّط فيه؛ فمن أحبه الرحمن يَكن من أولياء الله، وينطبق عليه الحديث القدسي العظيم: «**مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما**

(١) أخرجه البخاري مُعلقًا (٧٤١)، ووصله الترمذي (٢٩٠١)، وقال الألباني: «حسن صحيح».

تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، ولإن سألني لأعطينه، ولإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت، وأنا أكره مساءته»[(١)].

أيها المسلمون!

هذا باب من أبواب محبة الرحمن؛ فاحرصوا عليه، والزموه، ولا تفرطوا فيه.

ومن فضائلها كذلك:

ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝١﴾، فقال

(١) أخرجه البخاري (٦١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٦٤٠).

رسول الله ﷺ: «وَجَبَتْ!». قلت: وما وجبت؟ قال: **الجنة**»[١].

الله أكبر، الله أكبر!

وعن عبد الله بن بُريدة عن أبيه رضي الله عنه أنه دخل مع رسول الله ﷺ المسجد، فإذا رجلٌ يصلي، يدعو، يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطىٰ، وإذا دُعي به أجاب**»[٢].

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، قال: «**مَن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، حتىٰ يختمها عشر مرات- بنىٰ الله له قَصْرًا في الجنة**». فقال عمر: إذن نستكثر يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكثر وأطيب**»[٣].

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه، وصححه الألباني.

(٣) رواه أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» و«السلسلة الصحيحة» (٥٩١).

هل سمعتم أيها الأحباب؟!

يقول الأمين ﷺ: «**بنىٰ الله له قصرًا في الجنة**»، وليس قصرًا في الدنيا، أهل الدنيا يتقاتلون علىٰ حُطامها، وما يكادون يُحصِّلون شيئًا إلا بشِقِّ الأنفس، ومع ذلك لا يستمتعون به إلا قليلًا، ويتحملون تَبِعَته، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩].

أرأيتم أيها الأحباب، فضلُ الله الواسعُ وكرمه السابغ ورحمته التي وسعت كل شيء؟

بقراءة سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ عشر مرات- يُبنىٰ لك قصرٌ في الجنة، مع أن هذه القراءة لا تَستغرق إلا دقائق معدودة!

ومع ذلك فانظر إلىٰ حرص سادات الأمة علىٰ الخير!

يقول الفاروق عمر: إذن نستكثر يا رسول الله. فيرد عليه الهادي البشير بقوله: «**الله أكثر وأطيب**».

معنىٰ ذلك: أنك إن أكثرت من القراءة يُكثِّر الله ﷻ لك

من الأجر والثواب.

إنها أبواب من الخير مَنسية، وصفحات من العلم مَطوية، ينبغي للمسلمين أن يحرصوا عليها.

أرأيتم عظمة التوحيد لله رب العالمين!

أرأيتم قيمة التوحيد لله رب العالمين!

فإن سورة اشتملت علىٰ التوحيد، وخَلُصت له- استحقتْ هذه الفضائل العظيمة، بسبب ما تضمنته، واستحق قارئها هذه المناقب الشريفة، فقل لي بربك: كيف يُصرف الناس عن التوحيد؟! وكيف يُصرف الدعاةُ عن الكلام في توحيد الله رب العالمين، ومعرفته بأسمائه وصفاته؟!

سبب نزول هذه السورة:

جاءت في سبب نزول هذه السورة الكريمة رواياتٌ متعددة تتفق علىٰ شيء واحد، وهو السؤال عن نَسَب الله عَزَّوَجَلَّ ؟!

أسئلة جاهلة خرجت من أفواه جاهلة، ومن قلوب تنتكس في الضلالة، وترتكس في الشرك والكفر والانحراف.

«يا محمد؛ انسب لنا ربك!»، أو: ما نسب ربك؟

أن يخرج هذا السؤال من أفواه المشركين فهذا أمر لا يُستغرب.

أما أن يخرج هذا السؤال من أفواه أهل الكتاب، فإن هذا هو العجب العاجب!

مكان نزول هذه السورة:

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمدُ؛ انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، السورة»[1].

ومحصل هذه الرواية: أن المشركين من أهل مكة سألوا النبي ﷺ في مكة، فنزلت السورة، وورد ما يُفيد أن أهل الكتاب بالمدينة سألوه نفس السؤال فنَزَلَتْ.

قال الإمام ابن تيمية: سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» والترمذي والطبري بإسناد حسن.

أكثرهم علىٰ أنها مكية، وقد ذُكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة، وسؤال الكفار من أهل الكتاب- اليهود بالمدينة- ولا منافاة، فإن الله أنزلها بمكة أولًا، ثم لما سُئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرىٰ، وهذا مما ذكره طائفةٌ من العلماء.

فقالوا: إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين، أو أكثر من ذلك، فما يُذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعُه حقًّا، والمراد بذلك: أنه إذا حدث سبب يناسبها، نزل جبريل فقرأها عليه ليُعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب، وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك(١).

والقول بتعدد النزول أمرٌ لا غبار عليه، بل هو متفق عليه بين أهل العلم، بدليل تعدد نزول بعض السور بالأحرف السبعة، فالسور التي نزلت في العهد المكي تكرَّر نزولها مرة أخرىٰ بقراءات متعددة، ومن آثار وبقايا تلك الأحرف السبعة هذه القراءات المتواترة عن رسول الله ﷺ، فلقد نزل القرآن

---

(١) محاسن التأويل (٦٣٠٣).

علىٰ سبعة أحرف في المدينة، وليس في مكة.

ومعنىٰ ذلك: أن ما نزل بمكة قد تكرَّر نزولُه علىٰ النبي ﷺ، بالأحرف السبعة للتيسير علىٰ الأمة؛ نظرًا لأن لهجات العرب كانت كلغات متعددة، وهذا سرٌّ من أسرار إعجاز القرآن الكريم، فلم يكن القرآن معجزًا في لسان قريش الذي يتكلم به الرسول ﷺ فقط، وإنما كان معجزًا في جميع اللهجات التي نزل بها.

وهذا أمرٌ فوق الإعجاز، بل نقول: إنه إعجازٌ مُضاعف أن يتنزل القرآن علىٰ رجل أُمِّي في لغته، وفي لهجته، وهو إن استطاع أن يأتي بكلامٍ يُعجز أهل قبيلته ولهجته، فلن يستطيع أن يأتي بكلام يُعجز أهلَ القبائل الأخرىٰ، مع تعدُّد لهجاتها التي لم يمارسها ولم يتمرن عليها، وإنما لهجات العرب كانت بمثابة لغات متعددة، وهذا أمرٌ يطول بحثه، ويطول الكلام في شأنه، وإنما نحن نشير إلىٰ ذلك إشارة، لكي نتخلص من خلاف بعض أهل العلم في شأن مكان نزول السورة.

*** هل نزلت بمكة أم نزلت بالمدينة؟**

ولا مانع لدينا من القول بتعدد النزول، كما نقلنا ذلك عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وعندنا أصلٌ متفق عليه في هذا الشأن عند علماء علوم القرآن والقراءات والتفسير.

اهتمام أهل العلم بهذه السورة:

اهتم أهل العلم بهذه السورة اهتمامًا عظيمًا، نظرًا لما ثبت لهذه السورة من فضائل -كما أسلفنا- حتىٰ إن شيخ الإسلام ابن تيمية له فيها مصنفان، هما:

الأول: جواب أهل العلم والإيمان في بيان أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ تعدل ثُلث القرآن.

الثاني: تفسير سورة الإخلاص.

فاقرأهما ففيهما علم عظيم.

* * *

تفسير السورة

قال الله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة:١].

وكل سورة من سور القرآن الكريم نزلت في افتتاحيتها هذه البسملة الطيبة الكريمة؛ قال ابن عباس: كان النبي ﷺ لا يَعرف فصل السورة حتىٰ تنزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾[1].

فهل البسملةُ تُعد آية في صدر كل سورة، أم آية منفصلة افتُتحت بها كل سورة؟

هذا أمرٌ لا يترتب عليه كبير خلاف.

المهم: أن هذه البسملة -الطيبة الكريمة- نزلت مائة وأربع عشرة مرة في القرآن الكريم، نزلت في افتتاحيات السور جميعها، باستثناء سورة (براءة)؛ وذلك لأمور معلومة لدىٰ من يقرأ ذلك في كتب التفسير، واستعيض عن البسملة التي خلت منها أوائل (براءة) بمجيئها في سورة النمل في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ

(١) رواه أبو داود في «سننه» برقم (٧٨٨)، وصححه الألباني.

مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٣٠].

ثم يقول الله ﷻ في هذه السورة، وفيما يليها من سورتي (الفلق) و(الناس): ﴿قُلْ﴾، وجاء مثلُ ذلك في كثير من آيات القرآن الكريم: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر:١٤]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

ونرىٰ بعض الناس يقولون: قال الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ فلماذا لم يقل: «هو الله أحد»؟!

فمثلًا إذا قلتُ لك: «قل: أشهد أن لا إله إلا الله»، فإنك تمتثل لقولي، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، بدون أن تعيد كلمة «قل».

فما هو الفرق إذًا؟

ولماذا ثبتت هذه اللفظة من قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾؟!

فيقرأ القارئون في زمان رسول الله ﷺ وفي جميع الأزمنة بعده، وإلىٰ ما تستقبل الدنيا من أزمنة إلىٰ قيام الساعة -إن شاء الله

تعالىٰ- يقرؤون: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، بإثبات هذه اللفظة المباركة ﴿قُلْ﴾، وليس ذلك في سورة الإخلاص وحدها، بل في جميع المواضع التي ذُكرت فيها من القرآن الكريم.

والجواب علىٰ هذا السؤال:

أن الرسول ﷺ لم يأت بالقرآن من عند نفسه، وإنما سمعه هكذا من جبريل عليه السلام الذي سمعه بدوره من رب العزة -جل وعلا- ولذلك يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧].

ويقول تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ﴾ [يونس:١٥].

فالرسول ﷺ لا يؤدي القرآن بالمعنىٰ، وإنما يؤديه باللفظ والمعنىٰ وطريقة الترتيل، كما سمعه من جبريل، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة:١٨].

فلو كان القرآن يُنقل بالمعنىٰ لجاز هذا الافتراض، ولكن الرسول ﷺ ينقل للأمة ما تكلَّم به الرب تبارك وتعالى، فلما قال الله

سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، وسمعها جبريل من رب العزة، ثم نزل بها على المصطفى ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠٢]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥].

وتكلَّم الرسول ﷺ بالقرآن، كما سمعه من جبريل، وتكلمنا به -نحن- كما سمعناه من أئمتنا وشيوخنا بالإسناد المتواتر إلى النبي ﷺ نقلًا عن جبريل عليه السلام، نقلًا عن رب العزة جل وعلا.

المهم: أن هذه اللفظة ﴿قُلْ﴾ لا يجوز لأحد أن يسقطها، بل هي من كلام الله تعالى، وإسقاطها من الآية يؤدي إلى الكفر بآيات الله، والعياذ بالله.

وقد سُئل النبي ﷺ عن المعوذتين فقال: «قيل لي، فقلت»[1]، وذلك إشارة منه إلى أنه ﷺ مُبلِّغ محض لما يُوحى

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي بن كعب برقم (٤٦٩٢)، باب تفسير سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

إليه، وليس له فيه تصرُّف لما أوحاه الله إليه بزيادة ولا نقص.

وسؤال آخر:

لماذا قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ بإثبات كلمة ﴿قُلْ﴾؟

والجواب:

أننا مأمورون أن نعتقد بقلوبنا، وأن نقول بألسنتنا، وأن نفعل بقلوبنا وجوارحنا، وهذا هو الإيمان عند أهل السنة والجماعة.

إذًا مطلوب منا أن نعتقد اعتقادًا جازمًا بهذه الأمور، ومطلوب منا مع اعتقادنا أن ننطق بها، فحينما قال لك سبحانه: ﴿قُلْ﴾؛ ليبين لك أنك مطلوبٌ منك مع الاعتقاد الجازم في القلب -الذي لا يعتريه شك- أن تقر بلسانك، فيواطئ ما نطق به اللسان ما استقر في الجنان، وهذا هو صحيح الإيمان.

فالإيمان: «قول واعتقاد وعمل»؛ اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان -هذا في باب الاعتقاد؛ فإن أتمَّ الإنسان معرفة أركان الإيمان واعتقادها اعتقادًا يرضي الله عنه- انبثق العمل، وتمت أركانُ الإيمان، ولذلك كان الإيمان قولًا وعملًا، والقول: هو

قول القلب واعتقاده، وقول اللسان كذلك، والعمل: هو عمل القلب، وأعمال القلوب متعددة؛ من انقياد، ومحبة، وتعظيم، وخضوع، وتوكل...

وكذلك أعمال الجوارح متعددة، وكل ذلك من الإيمان، كما ثبت ذلك في القرآن والسنة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون:١-٩].

فدائمًا يأتي الإيمان في القرآن الكريم إيمانًا بالقلوب ونطقًا بالألسنة وعملًا بالجوارح، وهذا هو الإيمان الشرعي الثابت في الكتاب والسنة، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة، الذين هم

أهل ملازمة الصراط المستقيم.

فحينما يقول الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فإننا نقول ونحن مصدقون بهذا الكلام، ومعتقدون إيَّاه اعتقادًا جازمًا، لا يرقىٰ إليه شك ولا ظن علىٰ الإطلاق.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ﴾:

ماذا نقول يا ربنا؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

«هو» ضمير، والضمير حينما يأتي، فإنه يعود علىٰ شيء مذكور، فأين المذكور هنا؟

هذه الجملة هي بداية السورة، فليس هناك شيءٌ يسبقها، ولذلك تُسمىٰ مستأنفةً، والضمير «هو» يعود علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مع أن اسمه –سبحانه– لم يُذكر قبل ذلك، فلماذا عاد الضمير عليه سبحانه؟

يُجيب علىٰ ذلك العلماء الفاهمون الواعون لكلام الله –تعالىٰ– ولمرامي كلامه –سبحانه– فيقولون: وهل غاب الله عَزَّوَجَلَّ؟! هل يغيب –سبحانه– حتىٰ يحتاج الأمر أو التدليل عليه إلىٰ ذكره، ثم يعود الضمير إليه.

هو سبحانه

لــه في كــل شــيء آيــة تـدل علىٰ أنـه الواحـد[1]

ليس بغائبٍ فيحتاج إلىٰ أن يُذكر حتىٰ يعود الضمير علىٰ مذكور، أضف إلىٰ ذلك أننا نعتبر أن الآية الأولىٰ من سورة الإخلاص، ومن كل سورة -ما عدا (براءة)- هي قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة:١]، وحينئذٍ يكون الضمير قد عاد إلىٰ مذكور، وهو اسم الله ﷻ المذكور في البسملة.

أو يكون مرجع الضمير المسئول عنه -كما في سبب النزول- يعني: حينما سألوا النبي ﷺ وقالوا له: انسب لنا ربك الذي تعبده؟! فقال الله لهم: الذي سألتم عنه: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ .

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾:

﴿هُوَ﴾ اسمٌ يُسمَّىٰ ضمير الشأن، لماذا؟ وما معنىٰ ضمير الشأن؟

(١) نسبه صاحب «الوفيات» (١٣٨١٧) إلىٰ أبي نواس.

معناه: أن هناك أمرًا خطيرًا جدًّا، أمرًا عظيمًا جدًّا، وهذا الأمر العظيم، وهذا الأمر الخطير قامت عليه حُججٌ، وقامت عليه براهينُ؛ أي: الخبرُ الحقُّ المؤيَّد بالبرهان، الذي لا يُرتاب فيه، وهذا معنىٰ قولنا: «ضمير الشأن»، أو القصة، أو الخبر، فإذا سمعت قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ﴾ فاعلم أن معناه خبرٌ عظيم سيتحدث الله عنه، وهو أعظم الأخبار علىٰ الإطلاق، وهذا الخبر الذي سيحدثكم عنه ربكم يقوم عليه أعظم البراهين، وتقوم عليه أعظم الحجج.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)﴾:

ويُعرب ضميرُ القصة: مبتدأ، أما خبره فالجملة الاسمية التي هي ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فـ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جملة مكونة من مبتدأ وخبر في محل رفع خبر «المبتدأ» الذي هو قول الله ﴿هُوَ﴾، والمعنىٰ: قل هو العظيم الشأن والخبر أن الله أحد.

أما قوله: ﴿اللَّهُ﴾ فاسم الجلالة كما تعلمون.

فالله: هو المستحق الإلهية علىٰ جميع خلقه، وهو الإله

العظيم الذي لا يجوز أن يسمىٰ بهذا الاسم إلا هو ﷻ، ولذلك يقول الله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم:٦٥]، لا يوجد عند العرب أحدٌ سُمِّي باسم الله، إلا الله وحده.

﴿ٱللَّهُ﴾: عَلَمٌ علىٰ واجب الوجود، كما يقول المتكلمون.

أي: عَلَم علىٰ ذات الله، لا يُسمىٰ به غيره، وله خصائص في اللغة العربية ليست لغيره، منها: أنه الاسم الوحيد الذي ينادي بـ«يا» بدون حذف الألف واللام، فنقول: يا الله، بعكس غيره من الأسماء، فمثلًا: إذا قلت: يا أحد، يا تواب، يا غفار، لابد من حذف الألف واللام، ولكن حينما تقول: يا الله؛ فإنك لا تحذف الألف واللام.

ومنها: هو الاسم الذي إذا دخلت عليه ميمُ الجمع- أفاد جمع الأسماء الحسنىٰ جميعًا، ولذلك يطَّرد في الدعاء- النداء بقولنا: «اللهم»؛ لإنك تستحضر جميع أسماء الله الحسنىٰ.

ومنها: أنه الاسم الذي يُوصفُ ولا يُوصف به، فلا يقال: العظيمُ الله، الغفور الله، الملك الله، بل يُقال: الله العظيم، الله الغفور، الله المَلك، وذلك لأنه الاسم الذي يُوصف ولا يُوصف به.

ومنها: أنه الاسم العَلم علىٰ ذات الرب سبحانه، ويشمل جميع أسماء الله الحسنىٰ؛ لأنه المستحق للألوهية، ومن المعلوم أن المستحق للألوهية هو مَنْ له صفات الربوبية وسائر أسمائه وصفاته العلىٰ، ما عرفنا منها وما لم نعرف.

أما معنىٰ لفظ «الله» الاشتقاقي، فهو: الإله، وإلهٌ بمعنىٰ: مألوه، أي: معبود، لكن حُذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، كما في «الناس»؛ فأصلها: «الأُناس»، وكما في «هذا خيرٌ من هذا»، وأصله: هذا أخيرُ من هذا، لكن لكثرة الاستعمال حذفت الهمزة.

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾:

سورة الإخلاص كما بيَّنا سابقًا تشتمل علىٰ جميع أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، ثم فيها نفيٌ لجميع صفات النقص والعيب عن الله ﷻ، وفيها نفيٌ كذلك وتنزيه لله -سبحانه- عن مماثلة خلقه، فلا مثيل له من خلقه، ولا يُماثل هو أحدًا من خلقه،

فمَنْ شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن شبَّه خلقه به فقد كفر، كما جاء عن السلف.

كذلك تُنزِّه السورة ربنا -سبحانه- عن الشريك وعن الشراكة، فمطلق الشراكة منفيٌ عن الله.

فهي سورةٌ قد اشتملت علىٰ جميع أحوال العقيدة في الله، والتوحيد، وبيان أنواع التوحيد، والتنزيه لله، وكما قلت في أول حديثي:

كل هذه العلوم العظيمة في سطر واحد مكون من هذه الجمل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص].

«الله»: صاحب الألوهية، فهو المعبود وحده لا شريك له بحق، ولذلك فإن تفسير كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تعني: لا معبود حقٌّ إلا الله، فإن عُبد أحدٌ من دون الله، فقد عُبد بالباطل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢].

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾:

معنىٰ هذه الجملة: أن الله الذي تتحدثون عنه، وتسألون عنه ﴿أَحَدٌ﴾؛ أي: متوحدٌ بجلاله وعظمته، ليس له مثيلٌ، ولا نظيرٌ، وليس له شريكٌ، ولا صاحبة، ولا ولد، بل هو متفرِّدٌ بالجلال والعظمة.

قال الإمام ابن كثير: «يعني: هو الواحد الأحد، الذي لا نظير له، ولا وزير، ولا نديد، ولا شبيه، ولا عديل، ولا يُطلق هذا اللفظ علىٰ أحد في الإثبات إلا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله»[(١)].

وأصل كلمة «أحد» هي «وَحَد»، واستعيض عن الواو بالهمزة، فقيل «أحد»، وكلمة «أحد» لا يُوصف بها مخلوق علىٰ الإطلاق، فلا يقال: «فلانٌ أَحَد»، لكن يقال: «فلان واحد، ليس اثنين»، لكن لا يُقال عن أحد أبدًا: «إنه أحد».

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١٤/ ٥١٣)، دار عالم الكتب.

فهذا الاسم خاصٌّ بالله ﷻ، ولا يُسمىٰ به أحدٌ من الأعيان.

ومن خصائص هذا الاسم: أنه لا يُسمىٰ به شيءٌ من الأشياء في الإثبات، إلا في الأعداد المطلقة، فيقال: أحد، اثنان، ثلاثة... إلخ، بدون أن يُنزَّل علىٰ معين، ولكن يُطلق في النفي وما أشبهه؛ كالاستفهام، والنهي، والشرط.

ففي النفي؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص:٤]، وفي الاستفهام قال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم:٩٨]، وفي النهي، قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن:١٨]، وفي الشرط قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة:٦].، وقال: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [النساء:٤٣]؛ لأنها في هذه الاستعمالات لا تدل علىٰ معين، وإنما هي نص في العموم، كما تقرر في أصول الفقه: «أن النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الاستفهام، أو الشرط، تُفيد العموم»، فعندما نقول: «ما في الدار أحد»، فقد نفينا وجود أي إنسان، ولكننا إذا قلنا: «ما في الدار واحدٌ»، فمن الممكن أن يكونوا اثنين، أو ثلاثة، أو أكثر.

كذلك تجيء لفظة «أحد» مضافة، فتقول: جاءني أحد الثلاثة، أما أن تقول: «أحد» فقط بدون إضافة، وتصف بها أحدًا من الخلق، فهذا لا يكون أبدًا، وإنما لا يُوصف به إلا الله وحده؛ لخلوص هذا الاسم الشريف له جل وعلا.

وتأتي كلمة: «أحد» في الأعداد؛ مثل: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف:٥]، أو «أحد وعشرون»، أو في أسماء الأيام «يوم الأحد»، ولكنها هنا مُعرَّفة بالألف واللام، وليست نكرة.

والخلاصة: أنها لا تُذكر نكرة أبدًا في الإثبات إلا في أسماء الله الحسنىٰ، وهذه خصيصة من خصائص أسماء الله تعالىٰ، ولذلك قال: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، ولم يقل: «الله الأحد» بالتعريف، لكنه حذف الألف واللام ليُبيِّنَ هذه النكتة الغائبة عن أذهان كثير من الناس؛ يعني: كان من الممكن أن يقول: «الله الأحد»، كما قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

والأحد: اسم من أسماء الله، لكنه ذكر ﴿أَحَدٌ﴾؛ لماذا؟

لأنه لا يشابهه في هذا الاسم أحد علىٰ الإطلاق، فهو لا

يَقبل التقسيم، وكل مخلوق يقبل التقسيم، ويقبل الانفصال، ويقبل التعديد، ويقبل التجزئة.

أمَّا الخالق ﷻ فـ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١]، فالله أحد لا يشبهه أحدٌ في ذاته، ولا في أسمائه الحسنىٰ، ولا في صفاته العليا، فلو قال الله تعالىٰ: «الله الأحد» لما دلت علىٰ هذه المعاني العظيمة، فالتنكير له بلاغته، وله إعجازه، فقد اشتمل علىٰ إثبات ونفي، الإثبات للاسم وما يترتب عليه وما يُفهم من هذا اللفظ العظيم المعجز.

أما النفي فقد نفىٰ عن الله مُطلق الاشتراك والشراكة، فالله -سبحانه- ليس له شريكٌ في الذات، ولا في الأسماء، ولا في الصفات العليا، ولا في ملكه، ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولذلك جاءت كلمة «أحد» نكرة؛ لإثبات هذه المعاني كلها.

وأخيرًا أقول:

لما كان لا يجوز لمخلوق أن يتسمىٰ بـ«أحد»، أو «الأحد» علىٰ الإطلاق، ذكر الله هذا الاسم نكرة للتدليل علىٰ ذلك، ولبيان أن الأحدية انحصرت فيه سبحانه، فهو الأحد المتفرد بالكمال،

الذي له الأسماء الحسنىٰ والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل له، فلا يُتسمىٰ بهذا الاسم سواه، بعكس اسم الصمد، كما سيجيء بإذن الله تعالىٰ.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ :

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، ولم يقل: والله الصمد؛ يعني: لم يجعلها معطوفة علىٰ ما قبلها، وكأن كل هذه الجمل مترتبة علىٰ بعضها البعض كنتيجة، فكل آية نتيجة لما قبلها.

ولذلك قال بعض العلماء: لو أردنا أن ننظر إلىٰ التفصيل بعد الإجمال، لوجدنا أن قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فسرته الآيات التي جاءت بعدها ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

فهي تفسيرٌ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، فبعد أن ذكر الأحدية- ذكر الصمدية، وأتىٰ بها بجملة اسمية مُعرفة في طرفيها لإفادة الحصر؛ أي: الله وحده الصمد، فما معنىٰ الصمد؟

«الصمد»: عند العرب الذين نزل القرآن بلغتهم؛ يعني: الذي يُقصد لكمال سؤدده، وهذا كانوا يقولونه عن ملوكهم وسادتهم؛ لإن الناس يقصدونهم، ويطلبون منهم ما يحتاجون إليه، فالناس يصمدون إلىٰ الملك الفلاني ليطلبون منه، ويأخذون منه، ويلبي طِلبتهم، فهل هناك أعظم من ملك الملوك تبارك وتعالى؟!

ولذلك قال ابن الأنباري: «لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحدٌ، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم»[(١)].

وقال الزجاج: «هو الذي ينتهي إليه السؤددُ، فقد صمد له كلُ شيء؛ أي: قصد قصده»[(٢)].

وفي تفسير ابن أبي حاتم -بإسناده- عن ابن عباس، قال: «الصمد: الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربٌ أو بلاء».

(١) «الزاهر» لابن الأنباري (١/ ١٧٩).

(٢) «معاني القرآن» (٥/ ٣٧٨).

وعن إبراهيم النخعي -بإسناد حسن- قال: «الذي يصمد إليه العباد في حوائجهم».

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «الصمد: السيد الذي كَمُلَ في سؤدده، والشريف: الذي كمل في شرفه، والعظيم: الذي كَمُل في عظمته، والحليم: الذي كمل في حِلمه، والعليم: الذي كَمُل في علمه، والحكيم: الذي كَمُل في حكمته، وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد».

هذا هو التفسير الأول للسلف في معنىٰ اسم الصمد، وهناك أقوال أخرىٰ عن السلف في معنىٰ اسم الصمد لا تتعارض مع هذا التفسير، وإنما هو من باب اختلاف التنوع، وليس من باب اختلاف التضاد.

* * *

أقوال أهل العلم في تفسير معنى «الصمد» وبيان توافقها

جاء عن أهل العلم أن الصمد: الذي لا جوف له، يعني: لا حشو له، ولا أمعاء، ولا معدة، ولذلك قالوا: الصمد: الذي لا يأكل ولا يشرب.

وقالوا: الصمد: الذي لا يَدخل فيه شيء، ولا يخرج منه شيء.

وقالت طائفة أخرىٰ: الصمد: الذي لم يلد ولم يولد، وهؤلاء جعلوا ما بعده تفسيرًا له، وهو يوافق التفسير السابق، أعني: الذي لا يخرج منه شيءٌ، فلا يخرج منه شيءٌ منفصل عنه كالولد.

مع ملاحظة أن هذا التفسير لا يتعلق بموضوع خروج الكلام منه ﷻ، فهذا أمرٌ آخر ثابت ثبوتًا لا مطعن فيه، فالقرآن كلامه الذي تكلَّم به ﷻ.

وقالت طائفة أخرىٰ: الصمد الذي لا يكافئه أحدٌ في خلقه.

وقالت طائفة: الصمد: الذي يَحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء، لا مُعقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

وقالت طائفة: الصمد: الذي لا يُوصف بصفته أحدٌ.

وقالت طائفة: الباقي بعد خلقه، وهو الذي لا يَبلىٰ ولا يَفنىٰ.

إلىٰ آخر الأقوال التي لا تتعارض، وإنما ينطبق عليها اسم الصمد، فهو من باب اختلاف التنوع، وليس من باب اختلاف التضاد، ويتضح ذلك مما سنذكره، إن شاء الله.

فالسيد: الذي كَمُلَ في سُؤدده، هو الذي يستحق الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا، التي نعرف بعضها ولا نحيط بها علمًا، ونجهل ما غاب عنا مما استأثر الله بها في علم الغيب عنده، وكما أن للسيد الصمد صفات الكمال، فله سبحانه الكمال في الصفات، فهو العظيم الذي كمل في عظمته، والحكيم الذي كمل في حكمته... وذلك في جميع أسمائه وصفاته، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

لذلك؛ فهو الغني عن جميع خلقه، فلا يحتاج إلىٰ أحد من

خلقه، ولذلك تصمد إليه الخلائق، يعني: تقصده وتميل إليه، وتنتهي إليه، وتَرفع إليه حوائجها، فهو الذي يحتاج إليه كل أحد، ولا يحتاج إلىٰ أحد أبدًا لكمال غناه، ولإنه ليس كمثله شيء، وكمل في سُؤدده وغناه؛ استغنىٰ عن الطعام والشراب، والصاحبة والولد، ولذلك فهو لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام:١٤]، و﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾، وهذا من لوازم صمديته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وهو الذي يبقىٰ بعد فناء خلقه؛ لأنه لو جاز عليه الفناء- لما كان كاملًا في سؤدده وصفاته.

وعلىٰ ذلك فيمكننا أن نفسر اسم الصمد بتفسير يجمع الأقوال الثابتة عن السلف، والتي لا يعارض بعضها بعضًا:

ف﴿ٱلصَّمَدُ﴾: اسم جامع لجميع صفات الكمال فيثبتها لله تعالىٰ، ويجمع جميع صفات النقص في المخلوقات فينفيها عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويثبت حاجة العالمين لله عَزَّ وَجَلَّ.

فالعالمون -جميعًا- يَصمدون إليه في حوائجهم؛ لاحتياجهم إليه، وعدم استغنائهم عنه سبحانه؛ فالملائكة

المقربون، وحملة العرش، وجميع الخلق من الأنبياء والمرسلين؛ من الإنس والجن، من الحيوانات والجمادات، كل شيء في الدنيا، كل شيء في الآخرة، كل شيء في السماوات، وكل شيء في الأرض، كل شيء في كل زمان، وكل شيء في كل مكان، كلهم، كلهم... في حاجة إلىٰ الله تعالىٰ، ولا يستغنون عنه طرفة عين، ولذلك سمىٰ نفسه «الصمد»، يعني: الذي تصمد الخلائق إليه.

وهنا سؤال: إذا كان الله تعالىٰ قد استوىٰ علىٰ العرش، والعرش تحمله ملائكة عظام، فهل هذا يعني: أن الله -تعالىٰ- يحتاج إلىٰ العرش وحَمَلته، ويفتقر إليه؟

والجواب: أن ربنا هو الصمد الذي كمل في استغنائه عن خلقه، فصمديته تعني: عدم احتياجه إلىٰ العرش، بل إن العرش والكرسي والسموات وحملة العرش وجميع المخلوقات- كلهم في حاجة شديدة إليه، وهو مُستغن عن الجميع، بما فيهم العرش وحملة العرش، بل الذي يحمل العرش وحملته بقدرته- هو الله الصمد ﷻ.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾:

ذكرنا أن اسم «أحد» لا يُتسمىٰ به غير الله تعالىٰ، ولم يُوصف به شيءٌ من الموجودات إلا الله وحده لا شريك له، ولذلك لم يدخل التعريف علىٰ هذا الاسم العظيم، وذلك بعكس اسم «الصمد»، فجاء مُعرَّفًا بالألف واللام، فلماذا؟

الجواب: لأن اسم الصمد استعمله العرب في حق المخلوقين، كما جاء في شعرهم، فلقد أنشدوا:

لقد بَكَّرَ النّاعي بِخَيْرِ بَني أَسَدْ
بعمرو بن مَسْعودٍ وبالسَّيدِ الصَّمَدْ[1]

وأنشدوا أيضًا:

عَلَوْتُهُ بحُسام ثُمَّ قُلْتُ لَهُ
خُذْهَا حُذَيْفُ فَأنتَ السَّيدُ الصَمَدُ[2]

فلما كان اسم (الصمد) معروفًا ومستعملًا في حق المخلوقين، بعكس اسم «أحد»، لم يقل الله سبحانه: «الله صمد»،

---

(١) البيت لـ«سبرة بن عمرو الأسدي»، انظر «لسان العرب» (٣/ ٢٥٨).
(٢) البيت لـ«عمرو بن الأسلع»، انظر «لسان العرب» (٣/ ٢٥٨).

كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، بل قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾، فبيَّن -سبحانه- أنه المستحق لأن يكون هو «الصمد» دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته وكماله علىٰ التمام والكمال، أما المخلوق وإن وُصف بكونه صمدًا من بعض الوجوه، فإن حقيقة الصمدية منتفيةٌ عنه، فهو يقبل التفرُّق والتجزئة، وهو أيضًا محتاج إلىٰ غيره، ولذلك فإن الأحدية منتفية عنه تمام الانتفاء، كما أن الصمدية منتفية عنه تمام الانتفاء.

أما الله وحده، فهو وحده الصمد، الذي لا يجوز عليه شيءٌ من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه، كما قال الإمام ابن تيمية.

كل هذه المعاني التي ذكرناها وأكثر منها بكثير، مما نستوعبه، ومما يغيب عنا ولا ندركه، ولا نستطيع أن نحيط بعلمه- كل ذلك من معاني أسماء ربنا الحسنىٰ، وصفاته العليا، يزيد المؤمن إيمانًا، ويزيد المسلم استسلامًا، ويزيد المحسن إحسانًا.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾:

في هذه السورة التي تُكتب في سطر واحد ردٌّ على جميع طوائف وفرق الضلال من قبل عصر الرسول ﷺ ومن بعد عصره، وإلى قيام الساعة.

تصوروا! إيجاز عجيب، وإعجاز بليغ، مع تنزلها على رجلٍ أُمي بَهَر الإنس والجن بهذه العلوم الخارقة- ردت على جميع طوائف وفرق الضلال، مثل: اليهود الذين كانوا يقولون عن غيرهم: «الأُمميين»، وينعتون أنفسهم أهل الكتاب وأهل العلم، ومع ذلك فقد ضلوا ضلالًا مبينًا.

فمن ضلالهم المبين: ادعاؤهم أن لله ولدًا، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾! خسئتم وخَسِأ من قال بقولكم.

وكذلك النصارى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، يعني: كلام بالفم فقط، لا يطابق الواقع، وليس عليه دليل، فهو كلام لا أكثر ولا أقل، ثم قال تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة:٣٠].

جميع الملل الوثنية والطوائف الشركية أجمعت على القول بأن لله ولدًا، ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣﴾ [الطور:٤٣]!

ولذلك يدحض القرآن الكريم مقولاتهم بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ۝١١١﴾ [الإسراء:١١١].

فحمد الباري نفسه لكمال أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وتنزهه عن الشريك والولد والنقص والعيب، فقال سبحانه: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل:٥٩]؛ لأنه لو اتخذ ولدًا لكان محتاجًا ناقصًا، ولما استحق أن يُعبد، فهو أمرٌ مستحيل على الله - تعالى- كاستحالة الشريك، واتخاذ الولي من الذُّل، ولذلك يُعقِّبُ على قوله ﷻ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ بقوله ﴿سُبْحَانَهُ﴾، ثم يقول: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام:١٠١].

ولاحظوا أن الردود على هذه المقولات الشركية هي ردود عقلية، يرد عليهم بالمعقول، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف:٣٩]،

فهذا سؤال موجه للعقول البشرية التي جعلها الله مناطًا للتكليف، وجعلها ميزانًا صادقًا للأمور.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور:٣٥]؟ ردوا يا أصحاب العقول!

فالإيمان عندنا ليس فوق مستوى العقول، فليست هناك ألغازٌ وأحاجي، بل: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ [الجن:١٤]، يعني: بحثوا ونقبوا ودرسوا وتوخوا الحق فقصدوه، وكذلك هنا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١]؛ لإن اتخاذ الولد يلزمه اتخاذ الصاحبة، والصاحبة لابد وأن تماثله لتكون زوجًا له، فهي مثيل لزوجها، ومكافئة له، ولذلك قال سبحانه: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم:٢١]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات:٤٩]، يعني: لعلكم تذكرون أن خالق الأزواج كلها لا يكون زوجًا، وإنما يكون وترًا، أحدًا، صمدًا، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

ولذلك ثبت عن مجاهد أنه قال: «كل شيء خلقه الله فهو شفع، والوتر: هو الله وحده، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ [الفجر:٣]».

الشفع يعني: الخلق، والوتر، يعني: الخالق ﷻ.

فلما كان الله أحدًا صمدًا، ولم يكن له كفوًا أحد، وليس كمثله شيء، ولا ندَّ له، ولا نظير له، ولا صاحبة له، ولا شريك له- كانت النتيجة الحتمية القطعية التي لا شك فيها أنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

ولذلك نجد أن المشركين الذين ادعوا أن لله ولدًا، يلزمهم الاعتقاد بوجود الصاحبة؛ لأن الولد لا يأتي إلا من انفصال عن الوالدين، فلابد من وجود الصاحبة، وهذه الصاحبة لابد وأن تكون إلهًا.

هذا الأمر يلزمهم ولو أنكروه، ولذلك يُقال يوم القيامة للمسيح ﷺ: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة:١١٦].

فكون الصاحبة لابد وأن تكون إلهًا أمر لازم لادِّعاء الولد، ولو كانت الصاحبة موجودة -وهذا أمر مستحيل- لكانت مُماثلة للخالق -جل وعلا- وهذا يتنافى مع أحديته وصمديته، وكونه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

ولذلك قال سبحانه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥].

وكونهما يأكلان الطعام دليلٌ على احتياجهما إلى الطعام، وإلى إخراج الطعام، وهذا ضد الصمدية التي يتصف الله تبارك وتعالى بها، ولو كان له ولد وصاحبة لكان الولد والصاحبة من جنسه، كما هو معلوم، ولذلك قال الرسول ﷺ عن فاطمة: «**إنما هي بَضْعة مني**»، متفق عليه[1].

ولما جاء مُجَزِّز[2] المدلجيُّ إلى زيد بن حارثة وابنه

(١) رواه البخاري (٤٩٣٢) من حديث المسور بن مخرمة، ومسلم (٦٤٦١).

(٢) هو ابن الأعور بن جعدة المدلجي، سمي به؛ لأنه كان يجز ناصية الأسير في الجاهلية. انظر «مختصر البخاري» للألباني (٤/ ٢٠٢).

أسامة، وهما مُلتحفان برداء، وقد بدت أقدامهما، نظر إلىٰ القدمين، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فعرف ذلك بالشبه. وهذا مروي في البخاري ومسلم.

فالولد والصاحبة من جنس الوالد والزوج، والله ﷻ نفىٰ المثيل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١]، ونفىٰ النِّد في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]، ونفىٰ العدل والعديل في قوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام:١]، ونفىٰ المكافئ في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾، ونفىٰ السَّمي والنظير في قوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم:٦٥].

ثم بيَّن الله -تبارك وتعالىٰ- أنه لم يتخذ ولدًا في آيات عديدة من القرآن الكريم، واتخاذ الولد قد يكون بدون ولادة كالتبني مثلًا، كما في قصة يوسف عليه السلام في قوله تعالىٰ عن عزيز مصر: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١].

فنفىٰ الله -تعالىٰ- اتخاذ الولد عمومًا، وبيَّن أن المانع من

ذلك هو كون كل من في السماوات والأرض عبادًا لله تعالىٰ، ونزَّه -سبحانه- نفسه بقوله: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٦، ١١٧].

وانظر إلىٰ حرف الإضراب «بل»، ففيه بيان المانع عقلًا من اتخاذ الولد بما يلزم الخصم، وذلك أن الغاية من اتخاذ الولد هو أن يكون بارًّا بالوالد، وأن ينتفع الوالد بولده في كبره مثلًا، وأن يرثه من بعده، وأن يفرح به وبذريته، وأن يمتد ذكره من بعده بحمل اسمه... إلخ الأسباب التي تجعل الإنسان يشتهي ويرغب في الأولاد.

وربما كان هذا هو السر في قوله -تعالىٰ- مُعقِّبًا علىٰ قصة المسيح في سورة مريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم:٤٠]؛ فالله -سبحانه- له ميراث السموات والأرض، فليس في حاجة لمن يرثه، أو يحمل اسمه من بعده.

ولذلك قال -سبحانه- مادحًا نفسه: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ

يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء:١١١].

وقال: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٢، ٩٣].

وقال هنا في هذه السورة: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

ففي الآيات السابقة على سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾، نفى الله اتخاذ الولد، وهو أعمُّ من الولادة، فنفيُ اتخاذ الولد لا يستلزم نفي الولادة، فجاء في سورة الإخلاص النفيُ الأخص، وهو أنه ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

وهذه خصوصية لسورة الإخلاص التي تعدل ثلث القرآن الكريم.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾:

وهنا سؤال يَرِد: إذا كان المشركون قد ادعوا أن لله ولدًا، فهل ادعوا أن لله والدًا؟

والجواب: أن من أجاز الولادة في حق الله تعالى، فمن

الجائز عقلًا أن يجيز الوالد لله، فما الفرق بينهما؟!

فجاء نفيُ الأمرين؛ لأن الولد كالوالد، فمن كان له ولد فلابد وأن يكون له والد، أما الأحد الصمد فلابد وأن يكون: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

سبق وأن أوضحنا أن هذه السورة فيها ردٌّ علىٰ جميع الطوائف الشركية، ولكي تعلم ذلك؛ فانظر إلىٰ خريطة العالم قبل مجيء الرسول ﷺ؛ فعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمَقَتَهم جميعًا -عَرَبهم وعَجَمهم- إلا بقايا من أهل الكتاب**»[1]، مَقَت جميع أهل الأرض -من العرب والعجم- إلا بقايا من أهل الكتاب عددهم قليل، تمسكوا بالقليل الذي سَلِم من التحريف والضياع.

ومن هؤلاء: ورقة بن نوفل وأمثاله، ولم يكونوا يحملون

(١) أخرجه مسلم (٧٣٨٦)، (باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار).

منهجًا متكاملًا يستطيعون من خلاله أن يردوا الأمم إلىٰ الجادة التي تركهم عليها الأنبياء.

فلقد ضاع إرث الأنبياء السابقين، وحُرِّفت الرسالات السماوية، وغُيِّرت وُبدِّلت بأهواء النفوس: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٩].

فمقت الله البشر جميعًا -عَرَبهم وعجمهم- إلا بقايا من أهل الكتاب -النُّزَّاعُ من القبائل، لماذا مَقَتهم؟

الكل ادَّعىٰ لله الولد، المشركون العرب، يقول الله عنهم: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥]، ويقول: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات:١٤٩].

وحتىٰ الفلاسفة جعلوا لله أولادًا، وقالوا بنظرية العقول العشرة والنفوس التسعة، وجعلوا العقول العشرة بمنزلة الذكور، والنفوس التسعة بمنزلة الإناث، وبنوا الهياكل

لعبادتها، ودخل معهم إبراهيم عليه السلام في مناظرة خلَّدتها سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ...﴾ [الأنعام:٧٦]، حتىٰ قال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام:٨٣]، وهؤلاء هم الفلاسفة الصابئة.

واليونان، وما أدراك ما اليونان؟!

تُعرض علىٰ مسارحهم قصة الإلياذة والميثراسية، قصة الإله الذي وُلد من عذراء -وهي القصة التي أُعيد إخراجها بأبطال آخرين تارة في الهند، وتارة في الناصرة في قرية بيت لحم.

أما المصريون القدماء فترىٰ ذلك جليًّا في قصة إيزيس وأوزوريس، وقصة آمون، وأبناء الإله آمون...

جميع هذه الوثنيات أجمعت علىٰ ادعاء الولد لله -تعالىٰ- ولكنهم أحيانًا يُضيِّقون، وأحيانًا يُوسعون، يُضيِّقون حتىٰ يجعلونه ولدًا وحيدًا، وأحيانًا يوسعون فيجعلونها عائلة مقدسة.

هذا التيه، وهذا الضلال المبين أتت عليه هذه السورة الكريمة من القواعد فخَرَّ عليهم السقف من فوقهم.

وبدأت الآية بقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأن هذا هو الذي ادعاه الوثنيون.

أما قوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ فإنها لازمة لقولهم -لا محالة-كما أسلفنا؛ لأنه لو وَلد فلابد وأن يكون مولودًا؛ لأننا نقول لمن يدعي الولد: متىٰ ولَده؟ لو كان ولده في أي وقت لكان مُحدثًا، أم أنه كان ابنًا قديمًا أزليًّا؟

وهذا يلزم منه تعدد القدماء الأزليين، وهذا ضد الوحدانية، ثم هل هذا الولد يخلد؟ لو خلد لتعدد الباقون، وهكذا.. ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:٤٠]، فأين التوحيد إذًا؟!

ولذلك فهم يقولون: له ولد، وله والدة، وله زوجة، وفي النهاية يقولون: «إله واحد» كيف؟! هل يعقل ذلك؟! أين العقلاء؟!

لابد من إلغاء العقول؛ لأن الإيمان بهذه الترهات فوق مستوىٰ العقول.

قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾؛ لأنه لو ولد فلابد أن يولد، فلما نفىٰ الفرع الذي ادعاه الوثنيون نفىٰ الأصل الذي يلزمهم علىٰ قولهم، فهو سبحانه الأول، ولأنه الأول فليس قبله شيء، فلم يولد، وهو الآخر فليس بعده شيء، فلم يلد سبحانه.

ولما كان ادِّعاء الولد لله يُعد نقصًا وعيبًا منسوبًا لله، جعله الله -تعالىٰ- شتمًا له، كما جاء في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله عز وجل: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحدًا»**[1].

(١) أخرجه البخاري (٤٦٩٠)، (باب: تفسير قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ يسمعه من الله؛ إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم**»، متفق عليه[1].

ثم ختم الله -تعالىٰ- السورة بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾:

وفيها قراءتان: الأولىٰ: «كُفُوًا» بضم الكاف والفاء، وقلب الهمزة واوًا.

والثانية: «كُفْؤًا» بضم الكاف وتسكين الفاء وهمزها.

وهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان[2].

وحقيقة الكفؤ: هو المساوي؛ فلا كفو له تعالىٰ في ذاته،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٨)، (باب: الصبر علىٰ الأذىٰ)، وأخرجه مسلم (٧٢٥٨) (باب: لا أحد أصبر علىٰ أذىٰ سمعه من الله عز وجل).

(٢) قرأ حمزة: «كُفْوًا» بسكون الفاء، وقرأ الباقون: (كُفُؤًا) بضم الفاء والهمزة إلا حفصًا عن عاصم، فإنه كان لا يهمز، ذكره ابن خالويه في كتابه: «إعراب القراءات السبع وعللها» (٢/ ٥٤٧).

ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته، فما من موجود إلا وله كفو هو زوجه ونظيره، وعِدله ومثيله، فلو كان الحق -سبحانه- من جنس شيء من هذه الموجودات- لكان له مكافئٌ، ونظير، ومساوٍ، وهذا أمرٌ معلومٌ بطلانه بالعقل والشرع.

ولذلك جاء عن كعب: «السموات السبع والأرضون السبع أُسست على هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾».

ومعنى هذا -والله أعلم- أن السموات والأرض إنما خُلقت بالحق والعدل والتوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان:٣٨، ٣٩].

* * *

الخاتمة

هذا ما استطعت أن أذكره لحضراتكم في تفسير هذه السورة العظيمة التي تَعدل ثلث القرآن الكريم، وإن كانت السورة تحتمل بسطًا أكثر من ذلك، وهو ليس من كِيسِنا، ولا من جُعبتنا، وإنما نقلا عن أهل العلم بكتاب الله العظيم.

ونسأل الله أن يُعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا.

وأستغفر الله أن أكون تعديت في القول علىٰ ربي ﷻ، أو تهجمت علىٰ الكلام في كتاب الله بالظن، أو تجنيت علىٰ نفسي، وأستغفره سبحانه وتعالىٰ وأتوب إليه.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر:١٠].

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عِصمة أمرنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها مَعاشنا،

واجعل الحياة الدنيا زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، ولا تتوفنا إلا وأنت راضٍ عنا يا رب العالمين.

* * *

الفهرس

❊ ❊ ❊